

دوائر المصاهرات في قسنطينة مع نهاية القرن الثامن عشر

فاطمة الزهراء قشي

تمهيد

مساهمة في إثراء العدد الرابع من مجلة "إنسانيات" الخاص بالأسرة و المصاهرات... أطرح بعض التساؤلات في المدى البعيد بالرجوع إلى المجتمع الحضري القسنطيني في مطلع القرن الثالث عشر للهجرة (نهاية القرن 18م) محاولة رسم شبكة المصاهرات. و قد اعتمدت سجلات المحكمة المالكية بالمدينة مصدرا و الجرد الشامل لعقود الزواج و الطلاق منها، و ذلك مدة سبع سنوات فيما بين 1202 و 1208هـ / 1787-1794م¹ وكان الهدف الأساسي من العمل هو البحث عن الزيجات المتكررة و تعدد الزوجات و شبكة المصاهرات داخل المدينة وخارجها إن أمكن من جهة ثانية.

وعندما التزمت بتقديم هذا المقال قبل ستة أشهر، كنت أضغ اللمسات الأخيرة للرسالة؛ فوعدت بعرض الطروحات و النتائج على قراء هذه المجلة الفتية. و مادامت الرسالة منجزة و تنتظر المناقشة سأطرح أمامكم القضايا بصورة إجمالية فقط مع التركيز على نوعية الوثائق و كيفية التعامل معها حسب الأدوات المنهجية المتوفرة و ما تفرضه هذه المواد من تحفظات.

¹ توجد هذه السجلات العشر بأرشيف ولاية قسنطينة. و هي وثائق تغطي فترة 1202/1787-1273/1856. و قد أهملنا الهوامش عند ذكر العقود لأن تاريخها هو المهم و به يمكن التعرف على رقم السجل، ما دام الترقيم الداخلي غير موجود في الأصل.

إذا اردنا البحث في أنماط المصاهرة بالتعرف على الممارسات المحلية في اختيار الزوج، علينا أن نحدد العينة. فرضت دفاتر المحكمة المذكورة وجودها علينا إذ حفظت المعاملات التي وثقت أمام شهود العدل، ومنها عقود الزواج و الطلاق وكانت في أعداد كبيرة تشجع على البحث الكمي. وكان علينا أولاً أن نحدد نوعية هذه الوثائق ثم نتحقق من درجة مصداقيتها، و نرسم خطة للإستفادة منها في ندرة مصادر أخرى مكتملة.

1. الوثيقة والعينة

إنها سجلات المحكمة المالكية لمدينة قسنطينة المحفوظة ابتداء من 1787م. و لقد وردت بها عقود الزواج والطلاق من غيرها من المعاملات، دونت مباشرة أو نقلت من عقود سبق تحريرها بفترة قصيرة. و نقلت تلك المعاملات بانتظام كبير إذا ما تعاوضنا على بعض الاستثناءات التي تكرر فيها العقد (كأن نقل مرتين)، أو أهمل عقد آخر؛ و قد اتضح لنا هذا بالعثور على عقد الطلقة الثانية دون الطلقة الأولى مثلاً أو الطلقة الثانية دون المراجعة بعد الطلقة الأولى. وتبقى هذه الحالات قليلة إذ تمكنا من تركيب مسارات لمئات من النساء والرجال رغم بعض الخلل و النقائص.

هذا و قد لزم علينا التحقيق في طبيعة السجلات هذه - وكانت غير محققة ولم تدرس كوثيقة و مصدر - بدراسة أساليب التسجيل ودقته. إن هذه السجلات غير مرقمة الصفحات و لا العقود... وعليه قمنا بهذه الدراسة ليس على شكل سبر مقنن- حسب قواعد علم الإحصاء - و إنما اعتمدنا الجرد الشامل والمسحي لفترة محددة كان الهدف منها تتبع عمليات التسجيل من جهة ومتابعة الأسماء المتكررة بغرض تحقيق الوثيقة المصدر ذاتها من جهة أخرى والجواب على عدد كبير من الأسئلة منها :

من كان يسجل ؟ من كان يقدم على تسجيل الزواج والطلاق أمام عدول المحكمة و أمام "قاضيها للوقت" ؟ هل انحصر التقييد في فئات محددة اجتماعيا و محدودة عددا ؟ وكيف التعرف على الانتماء الاجتماعي للأزواج ؟ كيف يتم تعريفهم أمام تلك المؤسسة الحضرية المتمثلة في المحكمة المالكية ؟ أين دفاتر المحكمة الحنفية والإباضية ؟

و من أجل دراسة التركيبة الإجتماعية لسكان مدينة قسنطينة وشبكة المصاهرات كان من الضروري الإجابة على هذه الأسئلة الأولية قصد التعرف على الوثيقة و تقدير أهميتها كمصدر و التحكم في العينة. بعد سنوات من التعامل مع سجلات المحكمة و بعد تصنيف الآلاف من عقود الزواج و الطلاق بالدراسة والتحليل تبين أن هذه السجلات موثوق بها في كونها لا تحمل تناقضا داخليا في محتواها وقد تابعنا مئات الأزواج في الطلاق الأول والثاني وفي المراجعة وإعادة الزواج، بالنسبة لمن عددوا الزيجات...

ولكن كيف التعرف على الأزواج؟

ولأننا نجهل القواعد المتبعة في التسمية و التعريف أمام المحكمة كمؤسسة و سلطة قضائية وجدنا أنفسنا نبحث في النسبة والنسب و كيفية الإنتساب لأنه أساس كل تصنيف.

بعد أن علمنا أن السجلات هذه تحوي العقود الموثقة أمام عدول محكمة قسنطينة و أنها تعني بالدرجة الأولى سكان المدينة، تابعنا الأزواج مدة سبع سنوات متتالية (1208/1202-1787/1794) قصد رصد كل العقود الخاصة بكل فرد في الفترة المدروسة. رصدنا أكثر من 5500 عقدا و لزم تبويبها حسب الأزواج و الزوجات بغرض رسم دوائر المصاهرة. ومن المسائل التي فرضت نفسها قبل الغوص في موضوع المصاهرات هي مسألة التسمية و التعريف.

2. تركيبة الاسم وأساليب التعريف

يعرج الباحث، في بعض الأحيان على طروحاته الأولية ليناقش ويحلل مظاهر جانبية بالنسبة لموضوعه ولا يمكن السكوت عنها. وهي من باب المنطلقات المنهجية و التقنيات المناسبة لموضوع البحث.

إن الإسم هو البطاقة التي يتقدم بها الفرد للتعريف بنفسه وسط المجتمع، في دائرة من العلاقات تتوسع باستمرار. ولا نتوقف هنا عند اختيار الأسماء و معانيها و أصولها بقدر ما نحتاج إلى معرفة تركيبة الإسم و كيف يوظف في التعريف الرسمي أمام المحكمة² بعبارة أخرى كيف يمكن التعرف على

² SUBLET, J.- Le voile du nom. Essai sur l'origine du nom propre arabe.- أنظر : Paris, PUF écriture, 1979.

الزوج والزوجة والشائع أن التعامل باللقب العائلي غير راسخ قبل القرن التاسع عشر³ ماهي حقيقة هذا الأمر ميدانيا؟
حرصا على احترام الوثيقة تم رصد الأسماء كما وردت، و استعدادا للفرز الألفبائي و الآلي وضعناها في ثلاثة حقول منفصلة: الاسم الاول ثم اسم الأب فالإسم العائلي أو النسب / النسبة. ولم يكن الأمر بسيطا إذ لم تكن الأسماء موحدة التركيبية، فاعتبرنا، فرضيا، الإسم الثالث و ما يليه اسما عائليا. و ادرجنا الإضافات حول الحرفة وغيرها في الملاحظات⁴.
لقد لخص ابن منظور، في باب "النسبة" و "النسب" من لسان العرب المحيط، احتمالات الانتساب في ثلاثة مجالات: نسبة البنوة والموطن و الحرفة⁵. و ما يهمنا هو كيف نشبت علاقات القرابة، في غياب شجرة العائلة؟ هل يكفي تطابق الإسم لتقرير القرابة؟ وكيف التعامل مع النسبة الحرفية؟ متى عوضت الإسم؟ و ماذا عن النسبة إلى الموطن الجغرافي، و نعلم أنه تمييز لا يعني دائما الإلتناء الأصلي⁶؟ وضعنا كل هذه التحفظات المنهجية إلا أن تطبيقها ميدانيا صعب في ظل ندرة وثائق مكملة تفيد في التعريف بهذا العدد الكبير من سكان المدينة.

³ لقد ورد في تقرير اللجنة التي اقترحت قانون الحالة المدنية سنة 1881 أن الجزائريين " ليس لهم أسماء عائلية إلا فيما ندر...؛ أنظر:

ESTOUBLON, R. ; LEFEBURE, A.- Code de l'Algérie annoté. Recueil chronologique des lois, ordonnances, décrets, circulaires etc, formant la législation algérienne actuellement en vigueur.- Alger, 1896.- p. 568. Cité par PARZYMIES, A.- Anthroponymie algérienne, noms de famille modernes d'origine turque.- Varsovie, Ed. Scientifiques de Pologne, 1985.- p. 19.

⁴ قدمت هذه الدراسة في ورشة بحث حول "الفرد و المجتمع في المجتمعات المتوسطة الإسلامية" ببتونس في فبراير 1997. لم ينشر بعد.

⁵ "النسبة من الإنتساب، النسب واحد الأنساب و معناه القرابة، و قيل هو في الأبياء خاصة، و يكون إلى البلاد و يكون في الصناعة".- بيروت، لسان العرب المحيط، دار لسان العرب- د.ت.

⁶ لدينا في أسماء البايات و ألقابهم أحسن دليل على النعت إلى موطن الإقامة دون الأصل. فهذا أحمد باي الشهير بالقلي الذي حكم قسنطينة من 1756 إلى 1771 و كذلك مصطفى انجليز باي في آخر القرن... أنظر:

GAID, M.- Chronique de beys de Constantine.- OPU, s.d. (après 1975).

تسهيلا لعملية الجرد الآلي اعتبرنا الاسم الثالث في مكانة الإسم العائلي في المعدلات الإجمالية و لكن حرصنا في الأمثلة على عدم التعميم و الخلط⁷، و فضلنا التعامل مع الأسماء الثلاثية لمزيد من الدقة. قد أبرزت هذه الدراسة أن الإسم الثلاثي كثير التداول و يفوق الثلثين، و صيغة النسبة بالياء في آخره هي الأكثر شيوعا و تليها صيغة البنوة بعبارة "ابن" و تأتي الكنية في مرتبة أقل.

و إذا كانت هذه النتائج مهمة جدا إذ تززع الرأي السائد حول التسمية باللقب العائلي و القائل بتكريس الإدارة الاستعمارية له عندما فرضت سجلات الحالة المدنية، فهي تفيدنا في التعامل مع الأزواج بأكثر ثقة في حالة الاسم الثلاثي، و اعتمدنا بدرجة أقل على الاسم الثنائي لما فيه من خطر الخلط بين الأشخاص بسبب كثافة بعض الأسماء. و قد سجلنا مثلا عشرين عقدا بين زواج و طلاق للمدعوة "فاطمة بنت علي" و لم نسجل مثلا هذا الرقم في اسم ثلاثي؛ مما يدل على أنه اسم واحد لأكثر من امرأة...

بحثنا عن دوائر المصاهرات داخل المدينة و خارجها بين مختلف العائلات و الفئات من حيث المنبت و المستوى الاجتماعي والنشاط الاقتصادي و الحرفي توصلنا إلى نتائج تعيد النظر في الكثير من الأفكار المسبقة و السائدة حول تداول الاسم العائلي و تركيبته.

3. الأنساب والمصاهرات

جوابا على من يسجل زيجاته بمحكمة قسنطينة نستطيع القول أن سكان المدينة هم الذين يتعاملون معها. و مئات العقود تسجل شهريا و قد فاقت العشرة يوميا في بعض الأحيان. و عليه إن جل القاطنين بالمدينة يلجأون إلى خدمة عدول المحكمة المالكية لتوثيق معاملاتهم. لم نعر على ما يوجب هذا التعامل إداريا و يفرضه "قانونيا" لتفسير انتظامه و رسوخه؛ إنما قد يكون في سياق الأمر الذي أصدره صالح باي (1771-1792)

⁷ وردت النسبة إلى الموطن و تكررت و لا يمكن اعتبار كل من نسب إلى جيجل (أو ميلة) جيجلي، ميلي... من نفس العائلة. و كذلك النسبة الحرفية مثل "الدباغ" و "الحداد" و "العسكري" و غيرها.

بضرورة تقييد كل أملاك الوقف خاصة على المساجد وسبل الخيرات⁸. وهي المبادرة التي حظيت بالكثير من الإهتمام لما نتج عنها من رعاية البايك لشؤون الأوقاف وال عمران بصفة عامة.

هذا و قد أسفرت نتيجة الجرد الكمي أن كثافة الأنساب القبلية أو الأسماء القبلية الأصل طاغية في المدينة. و هذا لا يعني أنهم وافدون جدد بقدر ما يدل أولا على انتسابهم لموطنهم الأصلي، ثم حرصهم على المحافظة على هذا النسب رغم مرور الوقت؛ و ربما تدعمت المجموعة دوريا بوفود جدد. و قد تفسر الظاهرة باستمرار العلاقة مع الموطن بالإقامة المؤقتة واسطورة العودة⁹. و نشير هنا إلى كل الدراسات التي تناولت العلاقة بين المدينة والريف وطرق الاندماج في المدينة أو التوقع داخل المجموعات إما على قاعدة المنبت الأصلي أو الطوائف الحرفية أو بالتقرب من أوساط السلطة والنفوذ.

مادما نتعامل مع سكان المدن نصطلح على تسمية المجموعة ذات الإسم الواحد بالعائلة مع التنبيه لمعانيها المتعددة.

برزت عائلات "العمرى" و"العمراني" و"الدراجي" و"اليدري" و"البلعيدي" و"الطلحي" و"العلمي" و"الزموري" و"الوسلاطي" على رأس القائمة من حيث كثافتها بأكثر من أربعين رجلا لكل منها و بعدد متفاوت من النساء. إتضح أن جل الذين سجلوا زيجاتهم بقسنطينة أي القاطنين بها هم من أصل قبلي أي ريفي من جهة وأن أصيلي الشمال القسنطيني أكثر كثافة من شرقه و جنوبه¹⁰. أما الغرب فهو الأقل تمثيلا إذا اعتبرنا المناطق البعيدة منه. و قد بلغ محيط استقطاب المدينة حدود مدينة بجاية و زمورة.

⁸ BERBRUGGER, Adrien.- Les anciens établissements religieux musulmans de Constantine.- Revue Africaine, 1868, n° 12. - p.p. 121-133.

⁹ BABES, L.- Mythes d'origine et structures tribales dans le constantinois sous la domination turque : essai sur le fondement du pouvoir politique.- Thèse de 3ème cycle, Aix en Provence, 1984.

TEMIME BLILI, Leila.- Structure et vie de famille à Tunis à l'époque précoloniale et coloniale (de 1875 à la veille des années trente).- Tunis, thèse de doctorat de 3ème cycle / DRA, 2 vol.

¹⁰ BADJADJA, A.- Carte des tribus de l'est algérien.- Edition à compte d'auteur.

لا يسعنا عرض كل النتائج و إنما نطرح بعض قضايا من خلال الأمثلة التالية:

تشكل عائلة "الغربي" نموذجاً في صعوبة التعامل لشذوذها بالمرتبة الأولى دون منازع. تستحق عائلة "الغربي" أو جماعة "الغربي" وقفة لأكثر من سبب : إنها الأكثر كثافة إذ وظف اسم الغربي للتعريف بأكثر من مائة شخص (108 رجل و 86 امرأة). من حيث الإشتقاق يعد "الغربي" نسبة إلى جهة الغرب مثل "الشرقي" نسبة إلى الشرق و إن وردت هذه الأخيرة في عدد قليل (12 مرة). أما من حيث الانتساب العائلي، و موطن الإقامة، يعرف الدارسون أن "الغربي" اسم عائلة حضرية عريقة أعطت العديد من الفقهاء بين قضاة و مفتيين بين القرن الخامس عشر و السابع عشر¹¹. و لا زالت حاضرة في المدينة إلى يومنا هذا. لكن، هل ينتمي كل من انتسب إلى "الغربي" إلى عائلة واحدة أم أنه اسم شامل وشائع تضوي تحته عدة عائلات ؟ و هذا هو الأرجح في رأينا. لماذا طغت نسبة "الغربي" على غيرها مثل "الشرقي" و "الساحلي" و "الصحراوي" ؟ ربما لأن "الغربي" أصبحت لقباً عائلياً متداولاً أكثر من الأسماء الأخرى التي بقيت في شكل نسبة إلى الموطن ؛ و قد يعود السبب للنزوح القوي من المناطق الغربية، ويرمز "الغربي" في بعض المناطق الريفية القسنطينية إلى البائع المتجول المنحدر من جبال القبائل الكبرى.

و تبقى القضية مطروحة على الباحثين لتحديد معاني هذا الانتساب و كيفية توارثه من جهة، و من جهة أخرى سر كثافة التسميات القبلية في مدينة عريقة و استمرار التعامل بها إلى يومنا هذا، مما ينفي فكرة النزوح الحديث. هل نكتفي بالإسم لتقرير الأصل من جهة و درجة الرسوخ في المجتمع الحضري من جهة أخرى ؟ و كيف نفسر دائرة المصاهرات المبنية على معطيات محدودة مثل هذه ؟ و أين مكانة العائلات القسنطينية الراسخة في القدم ؟ إن ظهورها في هذه السجلات يجب على تساؤل آخر إذ يفند احتمال وجود دفاتر عدلية عائلية أو أخرى خاصة بالفئة

¹¹ عبد الكريم الكون.- منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية، تحقيق (سعد الله، أ).- دار الغرب الإسلامي، 1987؛ الحفناوي، أ.- تعريف الخلف برجال السلف.- بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982، جزاءن.

الحنفية الحاكمة إذ دون أبناء البايات عقودهم بها. لقد ورد زواج حسين بن صالح باي من بنت ابن زكري سنة 1215هـ/ 1800 م¹².
مادام الإسم لا يكفي وجب علينا توظيف كل الدراسات السابقة التي تناولت بالذكر العائلات القسنطينية و شخصياتها في أمر سياسي أو في عقد وقف أو في مهمة دينية أو حرفية¹³. وكانت النتيجة أن القائمة محدودة. وعليه برز لنا أن ما يعرف من عائلات قسنطينية كانت قليلة عددا ومحدودة كثافة¹⁴، مما يطرح مشكلتين حول سعة المصاهرات و أنواعها من جهة وحجم الوافدين والنازحين نحو المدينة، من جهة ثانية.
و تتمثل المشكلة الأولى في صعوبة المقارنة بين عائلات سجلت عشرات العقود و بين تلك التي وردت عدة مرات فقط؛ و عليه اتضح ضرورة مواصلة البحث طويلا أي على أجيال متتالية لرصد المصاهرات العابرة و الشاذة وتلك المكرسة بتجديدها و تدعيمها في كل جيل. و إلا كيف يمكن تفسير مصاهرات عائلة ابن باديس التي ظهرت في ثلاثة عقود تهتم كلها شخصا واحدا و هو "السيد علي النوري بن باديس" العدل بالمحكمة المالكية، و بين مواقف "السيد حسين الفكون"، العدل هو الآخر - الذي زوج ابنه محمد من راضية بنت ابن محجوبة و أحمد من شريفة بنت الأموي أما ابنته فطوم فقد زوجها للحاج سي ابراهيم بن نعمون...¹⁵ - و بين مصاهرات عائلة "الخطابي" التي سعت العشرين عائلة

¹² السجل رقم 3

¹³ سعد الله، أ.- تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر.- الشركة للنشر و التوزيع، 1983، جزآن؛ شعيب، محمد المهدي.- أم الحواضر في الماضي و الحاضر تاريخ مدينة قسنطينة.- قسنطينة، البعث، 1980، إلخ...

¹⁴ بينت البحوث اليدمغرافية و الإجتماعية أن تزايد السكان في المدينة، في القرون الماضية، كان قائما على التوافد المستمر من الريف الذي يغذيها بالمنتوجات و بالسواعد الفنية مما يفسر صغر حجم العائلات العريقة الإستقرار في المدينة. و توصلت تيون و جاردين إلى نفس النتائج رغم اختلاف الزمان و المكان، أنظر:

TILLON, G.- Le harem et les cousins.- Seuil, 1966 ; GARDEN, L.- Lyon et le lyonnais au XVIIIème siècle.- Science-Flammarion, 1975.

¹⁵ ملحق رقم : 1. مصاهرات بعض العائلات الحضرية.

في ظرف سبع سنوات أو عائلة الحناشي مثلا؟ و كيف نفسر التنوع في المصاهرات و كثافتها؟ لصالح أي طرف و ماهي أبعاد هذه الروابط؟ إذا كان من الصعب رسم استراتيجيات الأسر البلدية الصغيرة الحجم فكيف الولوج إلى عالم العائلات الوافدة ذات الانتماء القبلي الراسخ؟ إن مكانتها في النزاعات بين القبائل من أجل النفوذ الجهوي أو المحلي أو بصورة اعتيادية من أجل البقاء تجعل اختيار الأصهار عملية متشابكة و معقدة لا يمكن تفهمها في جهل مثل هذه المعطيات. فهذه عائلة "الخطابي" القوية عددا (أكثر من ستين عقدا بين رجل و امرأة)، تنتمي إلى قبيلة "بني خطاب" المتمكرة بين مدينتي ميله و جيجل، وهي "ثرية" في منطقة فقيرة على حد تعبير ليلي بابس¹⁶. قد تميزت بسعة المصاهرات مع تزواج بين أفراد العائلة الواحدة. و إن بقيت العلاقات في مجموعها بين عائلات من نفس المنطقة الأصلية تقريبا.

تقدم أكثر من أربعين رجلا و ثلاثين امرأة أمام القاضي وتوزعت المصاهرات بالنسبة لرجال "بني خطاب" إلى ستة مع نساء "من القبيل"، أي من "بني خطاب"، و ثلاثة من "السياري" و "اليدري" و اثنين من كل من "العمراني" و "العمرى" و "البلعيدي" و "المعمراتي" و "المسلمي" و الباقي في لقاء واحد؛ وتمت سبعة زيجات مع نساء لا يحملن اسما ثلاثيا. أما بنات الخطابي فكان من حظهن الزواج مع بني عمومة في ستة حالات و ثلاثة تزوجن من "البلعفتوني" و اثنين من "التليلاني" و "العيساوي" و الباقي توزعن عند "العبيدي" و "العمراني" و "البجاوي" و "العربي" و "العيدوني" و "الرحموني" و "الزيري" و غيرهم...¹⁷

إذا إعتمدنا على الاسم وجدنا ان "الخطابي" لا زالوا يصاهرون عائلات قبلية المنبت من الشمال القسنطيني أساسا مثل "التليلاني" و "العيدوني" و "اليدري". و أن نسبة التزواج في العائلة ضعيف عند النساء و يمثل السدس وهو أضعف عند الرجال حيث يمثل الثمن. مثل بني عمران و بني سيار و بني يدر و غيرهم¹⁸. كما تبين قائمة المصاهرات أن بنات الخطابي

¹⁶ BABES, L.- Mythes d'origine et structures tribales dans le constantinois sous la domination turque : essai sur le fondement du pouvoir politique.- Thèse de 3ème cycle, Aix en Provence, 1984.- p. 70.

¹⁷ أنظر ملحق "مصاهرات عائلة الخطابي" و "الحناشي".

¹⁸ ملحق رقم 2 : مصاهرات عائلة الخطابي.

تزوجن في دائرة أوسع نسبيا من رجالها. و قد أفرزت الدراسة من خلال مبالغ الصداق أن معدله بالنسبة لبنات الخطابي (60 ريبالا) أعلى مما أعطى بني خطاب لزوجاتهم (56 ريبالا).

و تأخذ هذه المعلومات و الأرقام مدلولها مقارنة بالممارسات السائدة أو الشاذة في الفترة المدروسة. و لكن لا تتضح الاستراتيجيات إلا في ضوء دراسة طويلة عبر عدة أجيال تمنح لهذه المعطيات الكثيفة أفقيا معانيها.

مثلت عائلة "الحناشي" التي تنتسب من دون شك إلى عرش الحنانشة، المجموعات ذات المنبت العربي الشريف حسب مختلف الروايات و هي منحدره من الجنوب الشرقي لمدينة قسنطينة. و قد كانت للحنانشة مكانة اجتماعية وسياسية كبيرة في بايلك الشرق طوال الحكم العثماني وكان شيخ الحنانشة ممن صاهر بايات تونس و لبس قفطان التولية بعد باي قسنطينة¹⁹. و لذا تدعو مصاهرات عائلة "الحناشي" إلى التفكير لأنها تميزت بالانفتاح التام على المحيط و ذلك بانعدام الزواج داخل العائلة من جهة و تفاوت المصاهرات من حيث الانتماء الاجتماعي الذي وسع عائلة بن صولة الذوادية من أجواد الصحراء من جهة و معتوقات الباي من جهة أخرى. وقد يفسر هذا الوضع بأن العائلة متعددة الفروع ولها مواقف و ممارسات مختلفة. من زاوية أخرى تبين أن بنات "الحناشي" تزوجن دون الكفاءة المشروطة شرعا - إذا ما تقيدنا بمبلغ الصداق كما أسلفنا - حيث دفع رجال "الحناشي" مهورا أعلى (معدل = 72 ريبالا) من تلك التي كانت من نصيب بنات "الحناشي" وكان المعدل لا يفوق (52 ريبالا) في حين قدر المعدل العام للعينة المدروسة بستين ريبالا. إن الفرق شاسع بين ما قدمه الأزواج وما أخذته الزوجات خاصة أن ما دفعوه فاق المعدل بكثير. وُصف بني خطاب بالغناء و المال في منطقتهم الأصلية و مع هذا كانت المهور عندهم في مستوى المتوسط؛ أما الحنانشة فلا يعانون من نقص المال و لكن اندماجهم في المدينة بدا شائكا إذ دفعوا الثمن

¹⁹ للمزيد حول الحنانشة أنظر: معاشي، جميلة -. الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10م/ 16 م إلى القرن 13 / 19م. دراسة اجتماعية سياسية.- جامعة قسنطينة، ماجستير في التاريخ، 1992. - 396 ص.
BABES, L.- Mythes....- Op. cité.- p.p. 233-286 ; FERAUD, Ch.- L.- Les Hrar seigneurs des Hanencha.- Revue Africaine, 1874 et d'autres articles.

باهظا في زيجات لم تقربهم بأعيان المدينة و أثريائها²⁰. كما سجلت بعض المصاهرات مع حرفيين انتسبوا لحرفتهم مثل "الغرابلي" و "الحاكي" و "الطبال" في حين بقيت مصهرات الخطابي بين أسر قبلية الانتماء. كيف نفسر مصاهرات الحنانشة هذه خاصة مع فئة المعتوقين حديثا من الرق؟ هل عتيقات الباي من العلجيات وليست من سواد افريقيا؟ و هل ساهمت هذه الزيجات في التقرب من مراكز الحكم و قيادة البايك؟ أمر محير...

قد يمكن الجواب في مدى استمرار الروابط مع القبائل والأعراس الأصلية أو انقطاعها، لأن عائلة الخطابي مثلا، مازالت على ارتباط وثيق بمنطقة بني خطاب بالشمال القسنطيني، وأن مكانتها و ثروتها (بابس، 1984) تظهر في نوع المصاهرات التي ربطتها بالعمرائي أو الدرارجي أو البعلفونتي مما يدعم انتماءها في المنطقة الأصلية ويرسخه من جهة و يخلق مجموعة متناسقة مبنية على الموطن الأصلي. ليس لدينا ما يثبت أن الزواج بين أسر قبلية الأصل كان يتم تربيته داخل المدينة أو خارجها، و "الشائع" أن الإقامة الفصلية في المدينة بغرض الشغل لا تنفي الزواج في الموطن الأصلي بل وتشجع هذا التوجه لقللة الاندماج في المجتمع المدني. لقد عثرنا على إشارات عابرة و نادرة، وردت في شروط الزواج، تلزم الزوج بعدم إخراج زوجته من بلد العقد، أو بعبارة أوضح "ألا تخرج إلى البادية إلا برضاها..." و هذا يبرز العلاقة المستمرة مع الريف مما يجعل احتمال خروج الزوجة إليه أو إرجاعها واردا إلا أن من اشترطن عدم الخروج من قسنطينة "بلد العقد"، لسن من عائلات قسنطينة. و هو أمر يعقد التفسير إذ المصاهرات ليست بين "بلديين" وريفيين كما كنا نتصور. فالأرجح إذا أن الوافدات تعودن على حياة المدينة و في سن الزواج تتحفظن عند العودة إلى أعمال البادية و ظروف العيش بها. هذا ما يستكشف من العقود التي لا تفصل في الأسباب و إنما تقيد الشرط والالتزام فقط.

الخاتمة

²⁰ أنظر ملحق رقم 3: مصاهرات عائلة "الحناشي".

تحليلا لعقود الزواج بغرض رسم شبكة المصاهرة خرجنا بصورة غير واضحة الملامح و إن تميزت أولا، بالكشف عن أن الزواج بابنة العم نمط غير سائد بل نادر في عينتنا، فالنسبة لا تفوق العشرة بالمائة إذا اعتمدنا تطابق الاسم الثالث، و هو مجال واسع يضم من دون شك أسماء متشابهة و ليست من العائلة. و الواقع أن كل الدراسات الميدانية، خاصة في الوسط الحضري اعطت نتائج مماثلة بنسبة ضئيلة جدا²¹.

أما حول المحور الثاني والمتمثل في الكشف عن المصاهرات داخل الأسوار وخارجها أكدت نتائج التحقيق على أن الانتماء القبلي هو السائد - و إن كانت العائلة قد ترسخت في المدينة إقامة - مما يعقد مهمة التفسير. إذا انطلقنا من أن العقود التي سجلت في المدينة تهم سكان المدينة بالدرجة الأولى - ولا شيء يبرر حضور أهل الأرياف المجاورة للزواج أمام قاضي المدينة قسنطينية - فكيف نتعرف على أقدمية كل منهم في المدينة ومدى اندماجهم في الوسط الحضري؟ و ماهي مقاييس المدينة الفاعلة في الوسط القسنطيني؟ ثم كيف نميز بين الظروف الطبيعية القاهرة (عدد الذكور و الاناث في سن الزواج في عائلة ما) وبين الخيارات الاستراتيجية؟

ثم باستثناء بعض العائلات كان عدد الرجال أكبر من عدد النساء في العائلات الواردة في العينة. و قد يبدو غير معقول انطلاقا من ظاهرة تعدد الزوجات إلا أن الفرق بين النساء و الرجال من حيث العدد النسبي لكل مجموعة قد يدعم فكرة النزوح المتأخر و أن الرجال أكثر كثافة في المدينة.

كما لا تفوق نسبة التزاوج داخل العائلة الواحدة 10 %، إذا حسبنا تطابق الاسم في خانة النسب مهما كان محتواها. أما أن نبحت عن العلاقات الثنائية بين عائلتين فهي متنوعة ولا توجد عائلة واحدة تميزت بكثافة المبادلات الأسرية بل نجد التنوع والتفتح و يبقى تحديد درجة التقارب و التكافؤ بين الأصهار.

حاولنا متابعة مصاهرات العائلات الأكثر كثافة لأنها تسمح بعددها أن تبين استراتيجياتها. ولكن و للأسف لا ذكر لهذه العائلات في الوثائق

²¹ Alliance et Patrimoine en Tunisie FERCHIOU, S.- Hasab wa nasab, Parenté, (pref. HERITIER, F).- Paris, CNRS.- 347 p. ; TEMIME BLILI, Leïla.- Structure et vie de famille à Tunis à l'époque précoloniale et coloniale (de 1875 à la veille des années trente).- Tunis, thèse de 3ème cycle/ DRA.- 2 vol.

الأخرى السائدة بالمدينة مثل عقود الوقف والملكية و في كتابات التأريخ المحلية. و عليه لا يمكن التعرف على نوعية العلاقة بين القاطنين في الريف والقاطنين في المدينة وما يميز هذه العائلات عن بعضها البعض. و عليه صعب علينا أن نخرج بنتيجة واضحة مبنية على معطيات موثوق بها.

بالنسبة للعائلات العريقة في المدينة فالعملية أوضح لقلّة عددها ومن ثمة قلة عدد المصاهرات. تميزت المصاهرات داخل المدينة وخارجها باختيار الزوجة خارج الدائرة العائلية الضيقة. إجمالاً توصلنا إلى نتائج ليس من السهل تفسيرها لأنها صورة وحيدة التقطت في تاريخ محدد و فترة محدودة (نهاية القرن 18 م) منفصلة عما قبلها و ما بعدها. رغم أهميتها فلا تعدو أن تكون خطوة أولى ضرورية و لكن ليست كافية لوحدها لتفسير تيارات المصاهرات. فيجدر مواصلة البحث جماعياً، تطلعاً إلى تطور المصاهرات نحو الانغلاق أو الانفتاح على المحيط مع التحولات الاجتماعية اللاحقة.

تعد نتائج هذه الدراسة لبنة أولى وأساسية تسمح بإعادة النظر في بعض "المسلمات" و تطرح مثل هذه المسائل انطلاقاً من الوثائق المحلية و تدعيمها بالرصيد المعرفي و المنهجي حول المجتمع الجزائري. ولا حرج أن تبقى التفسيرات معلقة ما دام البحث في بدايته، فالمهم أن المادة متوفرة وإن كانت مبعثرة لبحوث جماعية معمقة تتبلور في الميدان بالاحتكاك و المقارنة. وقد نعود إلى الموضوع بمزيد من التفاصيل عرضاً و تحليلاً، في المستقبل القريب.

الملحق

هذه مقتطفات من قائمة الذين تزوجوا (أو طلقوا) أمام المحكمة قسنطينة فيما بين 1202-1208هـ / 1787-1794م. وهي مستخرجة من فهرس بأسماء الأزواج مبوب إلى: اسم الزوج - اسم ابيه - اسم العائلة (إن وجد) ثم اسم الزوجة - اسم ابيها فاسم العائلة إن وجد. ثم عدد عقود الزواج و عدد عقود الطلاق التي وردت باسميهما معا. و نظرا لضيق الورقة تكتفي بالاسم الاول فاسم العائلة...

N° de l'enregistrement sur le fichier DictZ	رقم العقد في القاعدة
prnepoux	اسم الزوج
npere	اسم ابيه
nomepoux	اسم العائلة
prnepouse	اسم الزوجة
perepouse	اسم ابيها
nomepouse	اسم عائلتها
freqmar = fréquence mariage	عدد عقود الزواج
freqdiv = fréquence divorce	عدد عقود الطلاق

. use dictZ

. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepoux="bn badis"

Record#	prnepoux	nonepoux	prnepouse	nonepouse
1692	ali nuri	bn badis	radia	janis
1693	ali nuri	bn badis	radia	janis
1694	ali nuri	bn badis	zaynab	zcmur

. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepoux="fakkun"

Record#	prnepoux	nonepoux	prnepouse	nonepouse
2773	ahmad	fakkun	chrifa	amawi
2774	muh	fakkun	radia	bn mal

. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepouse="fakkun"

Record#	prnepoux	nonepoux	prnepouse	nonepouse
2033	brahim	bn namun	fattum	fakku

. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepouse="bn badic"

Record#	prnepoux	nonepoux	prnepouse	nonepouse
---------	----------	----------	-----------	-----------

. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepouse="masbah"

Record#	prnepoux	nonepoux	prnepouse	nonepouse
3940	muh	manamani	chrifa	masbal
3941	muh	manamani	chrifa	masbal
3986	balqacem	masbah	aichuch	masbal

. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepoux="masbah"

Record#	prnepoux	nonepoux	prnepouse	nonepouse
3985	khuja	masbah	masuda	fugha
3986	balqacem	masbah	aichuci	masbal

. list all nonepoux, nonepouse, freqmar, freqdiv for nonepoux="hannachi"

Record#	nonepoux	nonepouse	freqmar	freqdiv
3255	hannachi		1	0
3256	hannachi		1	0
3257	hannachi		1	0
3258	hannachi		1	0
3259	hannachi		1	0
3260	hannachi		1	0
3261	hannachi		1	0

```

. use dictZ
. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepoux="bn bad.s"
Record# prnepoux nonepoux prnepouse nonepouse
1692 ali nuri bn badis radia janis
1693 ali nuri bn badis radia janis
1694 ali nuri bn badis zaynab zcmur

. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepoux="fakkun"
Record# prnepoux nonepoux prnepouse nonepouse
2773 ahmad fakkun chrifa amawi
2774 muh fakkun radia bn mal

. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepouse="fakkun"
Record# prnepoux nonepoux prnepouse nonepouse
2033 brahim bn namun fattum fakkun

. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepouse="bn badic"
Record# prnepoux nonepoux prnepouse nonepouse

. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepouse="masbah"
Record# prnepoux nonepoux prnepouse nonepouse
3940 muh manamani chrifa masbah
3941 muh manamani chrifa masbah
3986 balqacem masbah aichuch masbah

. list all prnepoux, nonepoux, prnepouse, nonepouse for nonepoux="masbah"
Record# prnepoux nonepoux prnepouse nonepouse
3985 khuja masbah masuda fugha
3986 balqacem masbah aichuci masbah

. list all nonepoux, nonepouse, freqmar, freqdiv for nonepoux="hannachi"
Record# nonepoux nonepouse freqmar freqdiv
3255 hannachi 1 0
3256 hannachi 1 0
3257 hannachi 1 0
3258 hannachi 1 0
3259 hannachi 1 0
3260 hannachi 1 0
3261 hannachi 1 0

```

1595	bejawi	khattabi	1	0
1725	bn budarham	khattabi	0	1
1873	bn j'aydar	khattabi	0	1
2167	bn wachc	khattabi	0	1
2284	budarham	khattabi	0	1
2973	gharbi	khattabi	1	0
3329	hawak	khattabi	1	0
3428	iduni	khattabi	0	1
3460	islami	khattabi	0	1
3468	jabli	khattabi	0	1
3473	jabri	khattabi	1	0
3713	khattabi	khattabi	0	1
3714	khattabi	khattabi	0	1
3715	khattabi	khattabi	1	0
3716	khattabi	khattabi	1	0
3717	khattabi	khattabi	1	0
3718	khattabi	khattabi	1	0
4002	maslami	khattabi	0	1
4073	mjaldi	khattabi	1	0
4338	rahmuni	khattabi	1	0
4423	sadrati	khattabi	1	0
4527	siari	khattabi	1	0
4751	tabbal	khattabi	0	1
4863	tlilani	khattabi	1	0
4864	tlilani	khattabi	0	1
5185	wd sid salah	khattabi	1	0
5293	zbiri	khattabi	2	0
5417	çawli	khattabi	1	0

. list all nomepoux, nomepouse, freqmar, freqdiv for nomepoux="khattabi"

Record#	nomepoux	nomepouse	freqmar	freqdiv
3688	khattabi		1	0
3689	khattabi		1	0
3690	khattabi		1	0
3691	khattabi		1	0
3692	khattabi		0	1
3693	khattabi		0	1
3694	khattabi		0	1
3695	khattabi		0	1

3696	khattabi		0	1
3697	khattabi	amrani	0	1
3698	khattabi	amrani	0	1
3699	khattabi	amri	0	1
3700	khattabi	amri	1	0
3701	khattabi	balafutni	1	0
3702	khattabi	balaidi	0	1
3703	khattabi	balaidi	1	0
3704	khattabi	bn fufa	0	1
3705	khattabi	bn saad	1	0
3706	khattabi	bujlal	1	0
3707	khattabi	chbaabi	0	1
3708	khattabi	daraji	1	0
3709	khattabi	hasani	1	0
3710	khattabi	idri	1	0
3711	khattabi	idri	0	1
3712	khattabi	jabri	1	0
3713	khattabi	khattabi	0	1
3714	khattabi	khattabi	0	1
3715	khattabi	khattabi	1	0
3716	khattabi	khattabi	1	0
3717	khattabi	khattabi	1	0
3718	khattabi	khattabi	1	0
3719	khattabi	maamaratni	1	0
3720	khattabi	maamaratni	1	0
3721	khattabi	marwani	1	0
3722	khattabi	maslami	1	1
3723	khattabi	maslami	1	0
3724	khattabi	sakfali	0	1
3725	khattabi	siari	1	0
3726	khattabi	siari	0	1
3727	khattabi	siari	1	0
3728	khattabi	tlilani	1	0
3729	khattabi	tufuti	1	0
3730	khattabi	zaabubi	0	1
3731	khattabi	zandawi	0	1
3732	khattabi	çawli	0	1
3733	khattabi	madhwi	1	0
3734	khattabi/buchrb	idri	0	1